الجيشُ الحمَاديُ
ودَورُه في درء الأخطارِ الخارجيةِ
خلَال عهد الناصر بن علناس
(454–481هـ/ 1062–1089م)

The role of the Hammadid army in repelling the external threats during the Reign of Prince Annacer Ibn Alnas
(454-481$^{A.H}$/1062-1089$^{A.D}$)

أ صلاحي حسام/ م ودب ت ع ج/ن ع1

الجيش الحمادي ودوره في درء الأخطار الخارجية خلال عهد الناصر بن علناس(454–481هـ/ 1062–1089م)

The role of the Hammadid army in repelling the external threats during the Reign of Prince Annacer Ibn Alnas (454-481A.H/1062-1089A.D)

أ صلاحي حسام
م و د ب ت ع ج/ن ع1

ملخص:

بلغ الجيش الحمادي ذروة قوته إبّان عهد الأمير الناصر بن علناس الذي استطاع القيام بالعديد من الانجازات العسكرية فقد شيّدالحصون والقلاع العسكرية ووضع حدا للتهديدات الخارجية، كما أنشأ البحرية الحمادية والتي تعتبر نواة البحرية الجزائرية، فكل ذلك انعكس إيجابا على هيبة الدولة وقوتها العسكرية البرية منها والبحرية.

الكلمات المفتاحية: الدولة الحمادية- الجيش الحمادي- الناصر بن علناس، القوات البرية، القوات البحرية.

Abstract:

The Hammadid army became so strong, during the reign of Prince Annacer Ibn Alnas who managed to realize many military achievements such as the construction of military fortifications and fortresses, as well as seting up barriers against external threats. Alse he managed to establish the Hammadid navy, considered as the outset of the Algerian navy. All that, was a positive aspect reflected the prestige and the military power (land forces and navy) of the State.

Keywords: Hammadid state. The Hammadid army, AnnacerIbnAlnas, land forces, The Navy,

مقدمة:

تُعد قيام الدّولة الحمّادية في بلاد المغرب الأوسط إبّان القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي حدثا بارزا بالنسبة لتاريخ الجزائر في عصر الدّويلات المستقلة ذلك أن تشكّل هذه الدّولة أنهى عهد وصاية المشارقة على حكم المنطقة، وزادت قوّة الدّولة الحمّادية إبّان عهد النّاصر بن علناس الذي قام بتنظيم وتجهيز الجَيش الحمّادي وقد استطاع أن يُوسع الرقعة الجغرافية للدّولة، كما شيَّد الحصون والقلاع العسكرية في عاصمته الجديدة بجاية أين أصبح للدولة جيش بحري بجانب الجَيش البري الذي ورثه من قبل، واستطاع بهذا الجَيش التصدي للأخطار الخارجية التّي هدّدت كيان الدّولة فقد وضع حدّا للقبائل الهلالية، كما واجه تهديدات قبائل زناتة ولعلّ أخطر تحدي واجهه الحمّاديون إبّان عهد النّاصرتهديدات بني عمومتهم وجيرانهم الشرقيين الزيريون، كما كان للجيش الحمّادي دور جوهري في المحافظة على أمن واستقرار الدّولة مما انعكس ايجابا على تطّور وازدهار الدّولة الحمّادية في وقت وجيز .

1- الدولة الحمادية وأميرها الناصر

إن انتقال الدّولة العبيدية (الفاطمية) من بلاد المغرب إلى مصر وتكليف بلكين بن زيري بن مناد (361–373هـ/972–984م) بإدارتها سنة 361هـ/ 972م[1] يُعتبر في أمر الواقع نهاية حقبة عهد الخلافة العربية في بلاد المغرب وبداية عهد الإمارات والدول البربرية المستقلة، وبانتقال الحكم إلى ابنه المنصور بن بلكين (373–386هـ/ 984–996م) بزغ نجم أخيه الأمير حماد بن بلكين (405–419هـ/1014–1028م)، فقد تولى إمارة بلاد المغرب الأوسط، وعلا شأنه لما استعان به ابن اخيه باديس في محاربة الزناتيين وعقد له على أشير فتوسعت بذلك حدود ولايته بعد أن كوّن جيشا وجمع ثروة من المال[2]، وقد ابلى بلاء حسنا في مجابهة قبائل زناتة التّي شكلت خطرا محدقا بالدّولة الأم –الزيرية- واتخذ هذا الأخير القلعة (قلعة بني حماد) عاصمة لدولته في حدود سنة 398هـ/ 1008م[3] تمهيدا لاستقلالها عن الدّولة الأم الزيرية في حدود سنة 408هـ/1017م، فقد كانت له مؤهلات عسكرية[4]، واتسعت الدّولة الحمّادية في عهد الأمير القائد بن حماد وضمت المسيلة وطبنة ومرسى الدَّجاج وزواوة ومقرة ودكمة[5]، ووصلت غربا إلى فاس في عهد بلكين بن محمد بن حماد سنة 454هـ/ 1062م[6].

مرت الدولة الحمّادية بثلاث مراحل كبرى، أولها تمثلت في مرحلة التأسيس، والمرحلة الثانية عرفت فيها الاستقرار والازدهار، وأما المرحلة الثالثة فقد دبّ الضعف في أرجائها مما أدى إلى سقوطها[7] .

وعن الإطار الجغرافي لهذه الدّولة فلم يكن ثابتا حالها كحال الدويلات السالفة واللاحقة التّي قامت في بلاد المغرب، فإذا كانت الحدود الشمالية مستقرة بحكم العامل الطبيعي المتمثل في بحر الروم (المتوسط) والجنوبية شبه ثابتة فإن الحدود الشرقية والغربية للدّولة ظلّت بين مدّ وجزر حسب الأوضاع العامّة التّي مر بها الحمّاديون، فإذا كانت الرقعة الجغرافية للحماديين غداة قيام دولتهم تنحصر عند القلعة وما جاورها من مناطق فإن هذه الحدود عرفت اتساعا كبيرا أين امتدت من وراء نهر ملوية غربا إلى بونة شرقا بل ووصلت في بعض الأحيان أن ضمت بعض المناطق من إفريقية.

يُعد الأمير النّاصر بن علناس من أبرز الأمراء الحمّاديين على الإطلاق، فقد شهدت الدّولة خلال فترة حكمه تغيرات حاسمة في مجالات عدّة، ففي عهده انتقلت الدّولة من مرحلة التأسيس والبناء إلى مرحلة الاستقرار والازدهار، اختص هذا الأمير بمجموعة من الخصال العسكرية والسياسية أهلته لتولي منصب الإمارة عن جدارة واستحقاق، فتميز بالحزم والعزم والرئاسة[8] كما عُرف عنه الحزم والدّهاء والحنكة العسكرية والسياسية، فيعرف متى يُحارب ومتى يجنح إلى السلم. ويرى الباحث في التاريخ هادي روجار إدريس Hady Roger IDRIS بأن النّاصر أصبح زعيم المغرب الأوسط وجزء من إفريقية[9].

2- تعداد الجيش الحمادي وتشكيلته العسكرية في عهد الناصر:

إن قياس قوّة وهيبة الدول في قديم الزمان وحاضره يرتبط بما تمتلكه من إمكانيات بشرية ومادية، فقوّة الجيش تلعب دورا محوريا في هيبة الدّولة داخليا وخارجيا، وبالعكس فإن ضعف الجيش يجعل الدّولة ضعيفة وتصبح لقمة سائغة عند أعدائها، وقد أكّد على هذا وصية الأمير الزياني أبي حمو لابنه ومما جاء فيها، ما يلي: **«اعلم يا بني أن الجَيش أنصار، وبهم تستفتح الأمصار، فأحرز جيشك بمالك، فهو أصلح لأحوالك...، فبالجَيش تنال المقاصد، وتستجلب الفوائد، ويكبت العدو المعاند، والجَيش أبهة الخلافة، وحصن منيع من المخافة، وهم سيوف الإرهاب، وحماة الطعان الضراب. فمن كثُرت أجناده، عمرت بلاده، وهابه أعداؤه وحساده، ومن كثر جيشه قلّ خوفه وطاب عيشه، ومن قلت أنصاره ضعف انتصاره، ومن فرط في جيشه سقط عن عرشه، وأعان على نفسه أعداءه، وشتت بالتضييع آراءه»**[10].

أ- تعداد الجيش خلال عهد الناصر وتشكيلته وأسلحته

إن إحصاء الجَيش في عهد الدول والإمارات المغاربية إبّان العصور الوسطى لا يُعد أمرا دقيقا إلا في الحالات النادرة، ومن ذلك، تحاشت جل المصادر التاريخية تدقيق عدد الجيوش المغاربية، فهذا المراكشي يصف الجَيش الحمّادي في عهد الأمير حماد بقوله: **«فنهض إليه حماد في عساكر عظيمة»**، وفي عهد الأمير القائد زحف على الجموع الزناتية يريد فتح القيروان سنة 420هـ/ 1029م ثم المنصورية سنة 427 هـ/1036م، في جيوش عظيمة وجموع كثيفة. وبناء على ذلك يُمكننا الحكم بأن تِعداد الجَيش الحمّادي لم يكن بالقليل قبل عهد النّاصر ويُؤكد ذلك حجم الانتصارات الميدانية التّي حققها هذا الجَيش في المرحلة الأولى من عمر الدّولة.

ومهما يكن من أمر، فإن الجَيش الحمّادي حقق قفزة نوعية في عهد الأمير النّاصر في العدة والعدد والتنظيم، دل على ذلك تحديد عدد جيشه بأكثر من ثلاثين ألف مقاتل، غير أن حربا واحدة والتّي دارت بين تميم بن المعز بن باديس الزيري (453هـ/1062م– 501هـ/1108م) وحماد كلفت الجَيش الحمّادي عددًا مهولًا من القتلى، قُدر بأربعة وعشرين ألفا[11]. وأشار هادي روجر من أن عدد الفرسان الحمّاديين في عهد النّاصر وقبل الانتقال إلى بجاية بلغ عددهم اثني عشر ألف فارس بأقل تقدير غير أنهم تعرضوا للإبادة في معركة سبيبة[12].

والذي يظهر أن تحديد الجَيش بثلاثين ألفا ليس دقيقا وفي رأيي أن عددهم يفوق هذا الرقم بكثر، فلا يُعقل أن جيشا

مكونا من ثلاثين ألف ينهزم في معركة ويفقد أربعة وعشرين ألفا في سنة 457هـ/ 1065م ثم بعد ثلاث سنوات يُحاصر الأربس ويفتح القيروان. فمن خلال هذه الأحداث والوقائع يتبن بأن تعداد الجَيش الحمّادي تجاوز الثلاثين ألفا بكثير.

ودلّ على كثرة عدد الجَيش الحمّادي أنه في فترة النَّاصر أصبح هو المبادر بالهجوم والحصار في الجبهتين الشرقية من حدود الدّولة، فقد أفاد ابن عذراي أنه في سنة 460هـ/1068م حاصر جيش النَّاصر مدينة الأربس بإفريقية[13] (تونس) فقتل عاملها وواصل الزحف إلى القيروان[14].

ومما يدل على أن الجَيش الحمّادي إبّان عهد النَّاصر حضي بهيبة أن الأمير الزيري تميم بن المعز لما تناهى إلى مسامعه أن النَّاصر مستعد لحصاره في المهدية فإن تميم جهّز جيشه أتم التجهيز ومنحهم أعطيات هائلة، فمنح لكل مقاتل عشرة آلاف دينار، ولكل أمير مائة ألف ومن السلاح فأعطاهم ألف درع ومثله من الرماح والسيوف الهندية[15]، غير أن عدد الجَيش عاود الارتفاع أواخر عهد النَّاصر، فبلغ غداة جلوس المنصور بن النَّاصر أكثر من عشرين ألف مقاتل.

ب- تشكيلة الجيش.

الواقع أن تشكيلة الجَيش الحمّادي خلال عهد النَّاصر لم يطرأ عليها تغيرات كثيرة، فقد ورث الجَيش نفس التنظيم العسكري السائد سابقًا، ولئن كانت القوات البرية ركيزة الجَيش الحمّادي فإنه في عهد النَّاصر أصبح للبحرية شأن كبير بعد تغيير مقر العاصمة من القلعة إلى بجاية على الساحل ففرض تكوين تشكيلة عسكرية جديدة تمثلت في سلاح البحرية، فمن العناصر القبلية التّي شكلت الجَيش الحمّادي، يوجد:

ضم الجَيش الحمّادي مختلف القبائل المُشكلة للمجتمع الحمّادي، فأثناء تحرك الجحافل الحمّادية اتجاه سوسة بإفريقية صاحب الأمير النَّاصر بن علناس عناصر كثيرة من الصنهاجيين والزناتيين وعدي والأثبج[16]، واختص هؤلاء بمناصب قيادية عالية[17]، ويُمكن القول بأن الصنهاجيين يعتبرون غالبية سكان المغرب الأوسط[18] فلا غرو أن يُمثلوا أغلبية الجَيش، كما خصّ ابن خلدون قبائل زناتة من جملة الجَيش الذي استعان بهم النَّاصر في حربه ضد تميم[19].

أما عن الأسلحة التّي استعملها الجَيش البري الحمّادي فلا تخرج عن تلك المستعملة في بلاد المغرب في تلك الفترة، ويُفيدنا النويري من أنه غداة انهزام النَّاصر في معركته ضد تميم الذي تحالف مع القبائل العربية غنموا من معدات جيش النَّاصرالطبول والبوقات والفازات مع البغال[20]، فقد أفاد ابن الأثير بأن النَّاصر منح المال والسلاح المتمثل في الرماح والسيوف والدّروع والدّرق[21]. وقد اعتمد الناصر على سلاح الفرسان بدرجة كبيرة بدليل أنه في معركة واحدة فَقَدَ أكثر من عشرة آلاف فارس كما سبق الإشارة إليه سابقا.

الواقع أن البحرية الحمّادية لم يكن لها شأن قبل نقل مقر عاصمتهم إلى بجاية، فلم تذكرها المصادر التاريخية، غير أن نقل عاصمة الدولة إلى الساحل فرض على القيادة الحمادية إنشاء قوة بحرية، فأصبحت بجاية تضمّ دارا لصانعة المراكب البحرية[22]، فنظر إليها ابن البعبع وتأمّلها، وقال في نفسه: **«هذا المكان يصلح مدينة ومرسى وصناعة للسفن»**[23].

وتوفرت بجاية الحمّادية على كل المقومات الطبيعية لصناعة السفن مثل الخشب الذي يُمثل مادة رئيسية في صناعة كل المراكب البحرية، وأكد الإدريسي على وجود المقومات الطبيعية والبشرية اللازمة لصناعة السفن بقوله: «**وبها (بجَاية) دار لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي، لأنّ الخشب في جبالها وأوديتها كثير موجود، ويُجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة، والقطران، وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة، وعلى بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة المغرب من نحو جبل جرجرة وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب، وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلا ويجوز من شاء في كل موضع منه**»[24]. بالإضافة إلى توفرها على مادة الحديد بناء على ما أورده مارمول كربخال[25] كما وُجد بها أيضا مادة النحاس[26].

ومما يدل على أن النشاط الحربي للبحرية الحمّادية في عهد النّاصر بن علناس بدأ في النشاط والتوسع إلى مراسي أخرى قول الجغرافي أبو عبيد الله البكري (ت. 487هـ/1094م) عن مرسى بونة «**منه تخرج الشواني غازية إلى بلاد الروم، وجزيرة سردينية وكرسفة وما والاها**»[27]، ويجدر التنبيه أن البكري لم يُشر صراحة إلى خروج هذه الشواني من عنابة إبّان عهد النّاصر صراحة غير أن الأدلة والقرائن تُشير إلى ذلك بحكم أن وفاة هذا الجغرافي كانت بعد وفاة النّاصر بخمس سنوات فقط، ضف إلى ذلك أن بونة وغيرها من المدن الساحلية الحمّادية لم يكن لها شأن في المجال البحري قبل عهد النّاصر.

وخلاصة القول في البحرية الحمّادية ما أورده الباحث في التاريخ دومنيك فاليرين Dominique Valérian «**إن الجديد مع تأسيس بجاية هو انتقال الحكم نحو البحر ... يتعلق الأمر بالتوفر على عاصمة تسمح بالعمليات العسكرية ضد إفريقية الشرقية برا وبحرا على حد سواء... أصبحت منذئذ قوّة إقليمية رائدة**»[28].

3- أعمال الناصر العسكرية

قام الأمير النّاصر بن علناس بأعمال مدنية وعسكرية جليلة ما زالت بعض آثارها قائمة إلى اليوم، انعكست ايجابا على مكانة وهيبة الدّولة في الداخل والخارج، ووصل به الحد أن طمع في الاستيلاء على إفريقية، ونجح في ذلك، فمن جملة انجازاته العسكرية، يوجد:

أ- توسيع الرقعة الجغرافية للدولة

الواقع أن النّاصر بن علناس أمل في الاستحواذ على إفريقية كلها، غير أن النعرات القبلية والخيانة حالت بينه وبين ما يشتهي[29]، فقد استطاع توسيع حدود دولته بضمه بعض المناطق من تونس الزيرية إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فقد قصده وفد من أفريقية بعد وفاة المعز بن باديس وانفلات الأوضاع بها بسبب وصول القبائل العربية من المشرق واستيلائهم على العديد من المناطق التونسية كباجة والأربس[30]، وهكذا استطاع النّاصر في عهده أن يمد حدود دولته إلى تونس شرقا، بل وأصبح يُعين ولاتها كما عيّن عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان (451–488هـ/1059–1095م) فقد جاء عن ابن خلدون قوله : «**وصارت تونس آخرا إلى ولاية النّاصر بن علناس بن حمّاد صاحب القلعة. وولّى عليهم عبد الحق بن خراسان**»[31]، ويُفهم من هذا النص أن حدود الدّولة الحمّادية اتسعت في ظرف وجيز باتجاه حدود الدّولة الزيرية. غير

أن الحدود الغربية للحماديين تقلصت بفعل بروز قوة الدولة المرابطية.

ب- إقامة المنشآت العسكرية:

يُقصد بالمنشآت العسكرية كل البنايات والاستحكامات المنجزة بغرض دفاعي أو هجومي، فمن المنشئات الدفاعية يُوجد: القلاع، الأبراج، المحارس، المناظر، المنارات، الخنادق، الأسوار، الأربطة، والحصون.

لا شك أن تشييد حاضرة بجاية خلال عهد النّاصر صاحبه انجاز عدد لا بأس به من المنشآت العسكرية كالحصون والقلاع والثكنات والخنادق غير أننا لا يمكننا الجزم بأنها شُيدت كلها في عهد الأمير النّاصر، فقد أُنجزت بعضها في عهد خلفائه الذين حكموا من بعده، ومما يُشير إلى أن جلّ هذه المباني العسكرية شُيدت في عهد النّاصرأن المؤرخ والجغرافي ياقوت الحموي ذكر بأن النّاصر أمر بوضع أساس بنايات المدينة ونزلها بعسكره[32]، فلا يُعقل نزول جيش نظامي فاق تعداده ثلاثين ألفًا بدون عدد كبير من المرافق المدنية والعسكرية. ويُشير المستعرب والمترجم والمؤرخ الفرنسي لوران شارل فيرو L.charles féraud, بأنه في ظل حكم النّاصر بن علناس بلغت الدّولة الحمّادية ذروة قوتها، فقد شيّد هذا الأخير مبان رائعة كما أسس عدة مدن كبيرة، فكانت بجاية ضمن تلك المدن المشيدة، فقد أقيمت فوق أنقاض سالداي Saldae الرومانية القديمة[33].

فمن الحصون الحمّادية التّي ورد ذكرها يُوجد حصن تاكلات وهو من الحصون المنيعة أقيم من مكان مطل على وادي بجاية[34]، كما شُيد حصن بكر قريب من واد الكبير، ومن الحصون الأخرى أيضا، يوجد: حصن تادرفت، حصن وارفر، حصن الحديد[35].

ولعلّ أعظم المنشئات العسكرية التّي شُيدت في عهد النّاصر السور الذي أُحيط ببجاية[36]، وتُفيد الدّراسات الأثرية المعاصرة بأن هذا السور تراوح عرضه ما بين 170 و250 سم، بينما بلغ ارتفاعه ما بين 4 و6 متر حسب طبوغرافية الموقع وارتفاع وانخفاض المكان، وقد أحاط هذا الحصن العسكري بجميع اتجاهات المدينة بما ذلك البحر، فبلغ طوله 5400م، وقد حرص النّاصر على بناء هذا السور بنفسه، وأما السور الروماني العتيق فقد شُيد في بضعة أشهر فقط[37]. بعد أن جنّد النّاصر الآلاف العمال لتشييده، وقد زوده بأبراج ومازال بعضها قائم إلى اليوم، وقد أقيمت في أعلى هذه الأسوار ممشى للحراس[38].

وجاء عن روجر إدريس من أن الأمير النّاصر بنى السور الذي هدمه المعز بن باديس في ضواحي ولاية نقاوس[39]. كما ورد عن الباحث المتخصص في الآثار الإسلامية ببجاية عبد الكريم عزوق أن الأمير النّاصر اتخذ من الموقع المعروف يومئذ بدار السلطان والمعروف اليوم «بحصن كلوزيل» مكانا لإصدار أوامره بالتخطيط والتنفيذ[40].

وبحكم الموقع الاستراتيجي الذي تمتعت به بجاية وبإقامة هذه المنشآت العسكرية السالفة الذكر لم تتجرأ الجيوش غزوها، وبقي أمراؤها في عز وشموخ فعُمّرت على حساب القلعة[41].

ج- تطوير وتجهيز الجيش:

إن حجم الانجازات العسكرية والمدنية المحققة إبّان عهد الأمير النّاصر تعكس مدى الجاهزية التّي وصل إليها الجَيش الحمّادي وتدل قطعا بأن هذا الجَيش تمّ تطويره وتجهيزه عما كان عليه سابقا،ومما يدلّ على أن الجَيش الحمّادي وصل إلى جاهزية كبيرة في القتال بدليل أنه أصبح يُبادر بالهجوم ولم يكتف بالدفاع فحسب، غير أنه وبعد وفاته تجرأت شواني النورمان بقيادة روجار الثاني Roger II de Sicile (1130–1154م)، على حصار بجاية[42].

د- نقل العاصمة من القلعة إلى بجاية

لا نُنكر بأن نقل عاصمة بني حماد من القلعة إلى بجاية[43]كان بأسباب ودوافع عديدة خاصة العسكرية منها، فابن سعيد المغربي أشاد بحصانتها[44]، ففي سنة 457هـ/ 1065م شرع النّاصر في تشيد عاصمته الجديدة، وسُميت بالنّاصرية نسبة لمؤسسها[45]، ويُفهم من كلام ابن خلدون بأن الدافع الرئيسي لتغيير مقر عاصمته إلى بجاية هو الفرار من هجمات واعتداءات العرب الهلاليين نظرا لحصانة الجبال المحيط ببجاية وصعوبة اجتياز الطرق الموصلة إليها، فاستقر هو وخلفاؤه من بعده ببجاية[46]. ويؤكد الحميري بأن بجاية يحدها جبل أمسيول وهو شاهق الارتفاع يعسر اختراقه، والبحر محيط بها من ثلاث جهات: الشرق والغرب والجوف، فكل الطرق المؤدية إليها في غاية الوعورة باستثناء جهة الغرب ومع ذلك لا تستطيع الجيوش دخولها إلا فرادى أو فرسان[47]، ويبدو أنه اتخذ السرية في بنائها لأن ابن تميم لما أرسل البعبع لاستطلاع الأوضاع بها تفطن له حرس الأمير النّاصر، فلمّا ولى هاربا ألقي عليه القبض وقُتل[48].

4- مواجهة الأخطار الإقليمية (المغاربية)

واجهت الدّولة الحمّادية منذ نشأتها مخاطر خارجية[49] متعددة كادت تعصف بكيان الدّولة، ولعل أخطر تحدي عرفه الحمّاديون هو زحف القبائل العربية من المشرق بالإضافة إلى خطر بني عمومتهم الزيريين، فعمل النّاصر بن علناس على التصدي لتهديداتهم من خلال نقل مجريات العمليات العسكرية خارج حدوده، وتجلى ذلك من خلال:

ويعود تاريخ دخول هؤلاء الأعراب إلى بلاد المغرب لما خلع المعز بن باديس البيعة للعبيديين فانتقموا منه بأن سلّطوا عليه هؤلاء الوافدين[50] المنتمين لقبيلتي بن سليم وبني رياح، وشكلوا خطرا محدقا[51] بالدّولة الحمّادية وجيشها، وهذا منذ نشأتها، إلى غاية عهد النّاصر أين استفحل خطرُهم، فمؤسس الدّولة حماد بن بلكين دخل في حرب ضروس معهم[52].

أقام النّاصر بن علناس حلفا بربريا عربيا وهذا بدعم وتحريض من قبل الأثبج المتخاصمين مع بني رياح فقد أزعجهم نفوذهم وقوتهم، تألف حلف النّاصر من الأثبج وعدي المنتسبين لبني هلال بالإضافة إلى الصنهاجيين وزناتة في حين أن حلف خصومه تشكل من قبيلتي رياح وزغبة التابعتين لبني هلال وقبائل بني سُلَيم، ودخل الأمير المغراوي ابن المعز بن زيري في هذا الحلف[53].

بدأت الحرب بين جيش النّاصر والحلف المناوئ له سنة 457هـ/ 1065م[54]، في سهل سبيبة المحصور بين القيروان وتبسة، فتجابهت بنو رياح مع الأثبج وعدي، وأما زناتة التّي تزعمها المعز بن زيري فتصادمت مع الزناتيين المتحالفين مع

النّاصر[55] وأرغم خطر هؤلاء على النّاصر التراجع عن حصار بعض المواضع بإفريقية سنة 461هـ/ 1069م فعاد الجَيش أدراجه من حصار القيروان خشية من العرب[56]، فقد تحالف هؤلاء مع تميم بن المعز وساهموا في هزيمة الجَيش الحمّادي فقد كان معهم عدد كبير من الأسلحة والدواب[57]. ممّا أدّى إلى وقوع خسائر فادحة في صفوف الجَيش الحمّادي.

فبعد الهزيمة النكراء التّي مني بها النّاصر في معركة سبيبة وترتّب عنها قتل أكثر من عشرين ألف من قواته وقُتل أخوه القاسم وهرب إلى قسنطينة ولما احتمى بالقلعة خربوا جنباتها وهددوا المناطق المحيطة بها فاستهدفوا طبنة والمسيلة وعاثوا في الأرض فسادا وتخريبا وأذلوا أهلها وفرضوا عليهم الضرائب، وهو ما أرغم النّاصر على ترك قلعته والتوجه نحو بجاية[58]. والذي يظهر أن النّاصر ندم عن حرب السبيبة التّي جرت أطوارها ضدّ ابن عمه تميم[59]، وتمّ الصلح بين النّاصر بن علناس وتميم وذلك سنة 470هـ/1077م[60].

يبدو أن العلاقات المرابطية الحمّادية اتسمت بالهدوء في عهد النّاصر نظرا لاشتغال الطرفين بجبهات قتال متعددة، ففي سنة 462هـ/ 1070م فتح المرابطون فاس[61].

ويُمكن تلخيص التوجه العسكري العام للجيش الحمّادي في المنطقة المغاربية، فجهدهم العسكري تركّز على الدفاع بالدرجة الأولى، ففي الجبهة الشرقية والجنوبية كافحوا القبائل الزناتية وفي جهة الغرب جابهوا القوّة المرابطية الطامحة للاستلاء على الأجزاء الشرقية من الدّولة الحمّادية فقد وصل خطرهم إلى الجزائر قبل تراجعهم منها[62].

5- دور الجيش الحمادي في استقرار وازدهار الدولة الحمادية.

لعب الجَيش الحمّادي خلال عهد النّاصر دورا محوريا في تثبيت الأمن في أرجاء بلاد المغرب الأوسط، بل وامتد الأمن الحمّادي إلى جيرانهم الشرقيين (الزيريين)، فانعكس ذلك ايجابا على ازدهار اقتصاد الدّولة، فإلى أي مدى استطاع الجَيش الحمّادي فرض الأمن في ربوع بلاد المغرب الأوسط؟ وما هي انعكاساته على المجالات الأخرى للدّولة؟.

أ- توفير الحماية

قام الجَيش الحمّادي في عهد النّاصر بتوفير الأمن لسكان بلاد المغرب الأوسط فحسب وامتد أمنهم إلى المغرب الأدنى، فقد أفاد بن الأثر في حوادث سنة 460هـ/ 1068م بأن النّاصر أَمَّنَ مدينة الأربس بإفريقية[63]، وأصبحت بجاية في عهد النّاصر وبنيه ملجأ لبعض الفارين من بطش الولاة والحكام[64]، وإذا بدأت مدن إفريقية الساحلية بالسقوط بيد الفرنج ففي سنة 481هـ/1088م استولوا على زويلة وبعدها بقليل توفي الأمير النّاصر[65] فإنه لم تحفظ لنا كتب التاريخ أنه تعرضت أي مدينة حمادية للاعتداء من قبل الفرنج[66] أثناء عهد النّاصر بن علناس وهو ما يُوحي بقوّة البحرية الحمّادية آنذاك، ضف إلى ذلك أن الحدود البرية الحمّادية سلمت هي الأخرى من الاعتداءات الخارجية سوى ما تعرضت له القلعة من تدمير من طرف قبائل بني سليم وبني هلال.

ويُبين دومنيك فالرين الأهمية الاستراتيجية لبجاية الحمّادية على حساب القلعة بقوله «**تبيّن إذن الفترة الحمّادية أهمية بجاية الاستراتيجية في الفضاء المغاربي في زمن القوّة والاستقلال السياسي، يُشير الكفاح الذي أُقيم أيضا ضد قبائل**

الداخل وأيضا ضد الخصوم الزيريين أو المرابطين إلى أهمية هذا الموقع للامساك بالبلاد الخلفية وشن العمليات العسكرية على المستوى الإقليمي أكثر من القلعة، أعطت بجاية للحماديين قاعدة فعّالة لمساندة وبسط قوتهم الإقليمية وذلك بالاستفادة من الانفتاح البحري»[67].

ب- ازدهار الدولة

الواقع أن الازدهار الاقتصادي والثقافي الذي بلغته بجاية إنما حصل في عهد النّاصر بن علناس وخلفائه الذين جاؤوا من بعده، فبجاية على سبيل المثل قبل أن تُتّخذ كعاصمة للحماديين كانت عبارة عن مكان لرعي الدّواب والمواشي[68].

هذا ولم تقتصر فائدة هذا الموقع في الجانب الاقتصادي فحسب، فقد أصبحت بجاية مركزا ثقافيا يؤمها العلماء وطلبة العلم لينهلوا من معارفها ومشايخها، ومن هؤلاء الذين وفدوا إليها أواخر عهد الامير النّاصرالقاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي (ت.543هـ/1148م) أين تتلمذ ابن العربي على يد شيخها عبد الله الكلاعي ثم انتقل إلى المهدية.

ولخص الإدرسي الوضع الاقتصادي العام الذي آلت إليه بجاية في عهد الحمّاديين، بقوله : **«ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة الغرب الأوسط وعين بلاد بني حماد والسفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة وأهلها مياسر تجار وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة ولها بواد ومزارع والحنطة والشعير بها موجودان كثيران والتّين وسائر الفواكه منها ما يكفي لكثير من البلاد وبها دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابي لأن الخشب في جبالها وأوديتها كثير موجود ويجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة وبها من الصناعات كل غريبة ولطيفة»**[69].

الخاتمة.

بلغ الجَيش الحمّادي في عهد الأمير النّاصر بن علناس ذروة قوته، ويُعد هذا الأمير بحق المؤسس الفعلي للبحرية الجزائرية خلال العصر الوسيط، وعلى الرغم من عدم وضوح تشكيلة الجَيش البري والبحري الحمّادي إلا أن حجم إنجازات الجَيش الحمّادي في فترة حكمه تدل يقينا إلى مدى الجاهزية التّي وصل إليها الجَيش الحمّادي.

ويظهر أن نقل العاصمة الحمّادية من القلعة إلى بجاية ساهم في تحول الثقل العسكري الحمّادي نحو البحر فأصبحت الموانئ والمراسي الحمّادية محطة لإقلاع السفن الحربية. غير أن تشكيلة القوات البحرية الحمّادية ومعداتها العسكرية اكتنفها غموض في عهد النّاصر.

لعبت شخصية الأمير الحمّادي النّاصر بن علناس دورا محوريا في الارتقاء بالدّولة الحمّادية على جميع الأصعدة، خاصة المجال العسكري. وعلى الرغم من انهزام النّاصر في معركة السبيبة إلا أنه استطاع تجميع وتأهيل الجَيش الحمّادي من جديد.

الملاحق

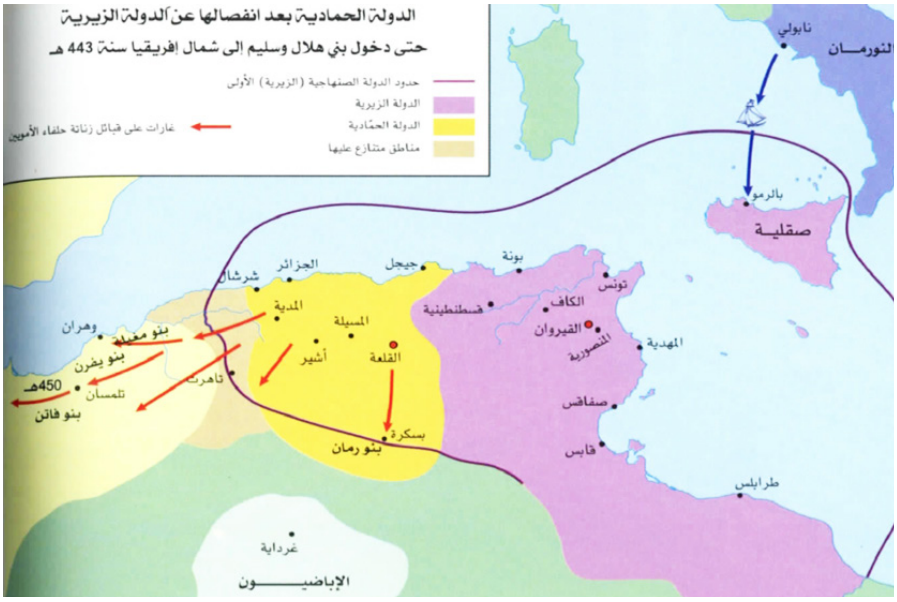

نقلا عن : عادل أنور خضر : **أطلس تاريخ الجزائر**، مراجعة ناجي يحي، ط.4، دار الشرق العربي، بيروت، 1438هـ/2017م، ص.78.

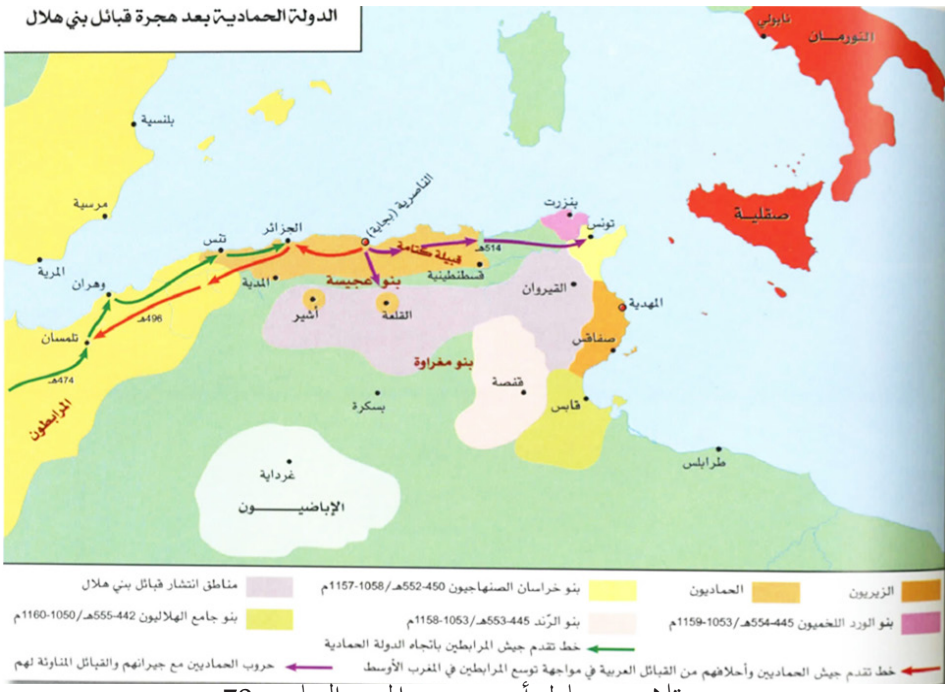

نقلا عن : عادل أنور خضر : المرجع السابق، 79.

صورة توضح أسوار قلعة تمزردكت ببجاية،

نقلا عن: عبد الكريم عزوق : المرجع السابق، 338.

صورة توضح ارتفاع وعرض سور تمزردكت ببجاية،

نقلا عن: عبد الكريم عزوق : المرجع السابق، 340.

صورة توضح السور الذي شُيد ببجاية في عهد النَّاصر بن علناس

الهوامش:

1- ابن حماد أبو عبد الله محمد بن علي الصنهاجي(المتوفي 628هـ/1231م): **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، تحقيق ودراسة التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، ص.92.

2- ابن الوردي عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس (ت. 749هـ/1349) : **تاريخ ابن الوردي**، دار الكتب العلمية، لبنان، 1417هـ/1996م، ج.1، ص.303.

3- الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت. 900هـ/1495م) : **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح. إحسان عباس، ط.2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص.81.

4- اتصف حماد بن بلكين بمؤهلات القيادة والرئاسة، ومنها: الفراسة، الذكاء، الفطنة. مؤلف مجهول (ت. بعد 580هـ/1185م) : **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، (د. ت.)، ، ص.168.

5- ابن الوردي : المصدر السابق، ج.1، ص.303.

6- القلقشندي أبو العَبَّاس أحمد بن علي بن محمد (ت.821هـ/1418م) : **صبح الأعشى**، دَار الكُتُب المِصريَّة، القَاهِرَة، 1922، ج.5، ص.182.

7- للمزيد من التفصيل والشرح حول هذا الموضوع، ارجع إلى: الملك المؤيد، أبو الفداء عماد الدّين إسماعيل بن علي بن محمود بن مُحَمَّد، صاحب حماة (ت. 732هـ/1331م)، **المختصر في أخبار البشر**، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، (د. ت.).

8- النويري أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم (ت. 733هـ/1333م) : **نهاية الأرب في فنون الأدب**، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 1423 هـ/2002م، ج.24، ص.230.

9- Hady Roger IDRIS, **la Berberie orientale sous les zirides Xe-XLLe siècles**, librairie d'Amérique et d'orient Adrien Maisonneuve, Paris, 1962, T.1, p.1, p.258.

10- أبو حمو موسى الثاني بن أبي يعقوب بن عبد الرحمن بن يحي بن يغمراسن (ت.791هـ/1389م) : **كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك**، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1279هـ/1862م، ص.12.

11- الذَّهبي شمس الدّين أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت. 748هـ/ 1347م): **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تح. عمر عبد السّلام التدمري، ط.2، دار الكتاب العَربيّ، بيروت، 1413هـ/1993م، ج.30، ص.289.

12- Hady Roger IDRIS, op. cit., T.1, p.258.

13- أُطلق عليها إفريقية لأنها فرّقت (الحد الفاصل) بين مصر وبلاد المغرب. الحموي شهاب الدّين أبو عَبْد الله ياقوت بن عَبْد الله الرُّومي البَغْدَادي (ت.622هـ/1225م) **معجم البلدان**، ط.2، دَار صادر، بَيْرُوت، 1995، ج.1، ص.228.

14- ابن عذاري أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي (ت. في القرن 8هـ/14م) : **البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب – قسم الموحدين**- تح. مُحمَّد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1406هـ/1985م، ج.1، ص.299.

15- النويري : المصدر السابق، ج.24، ص.221.

16- ابن عذراي : المصدر السابق، ج.1، ص.299.

17- وكان منهم الضحاك وعياض ومقدم والعاصم والطيف ودريد وكرفة وغيرهم حسبما يظهر في نسبهم. وفي دريد بطنان توبة وعنز، ويقولون بزعمهم إن أثبج هو ابن ربيعة ابن نهيك بن هلال. فكرفة هو ابن الأثبج. وكان لهم جمع وقوّة، وكانوا أحياء غزيرة من جملة الهلاليين الداخلين لإفريقية، وكانت مواطنهم حيال جبل أوراس، سائر أيامهم. ثم افترق جمع الأثبج وذهبت بذهاب صنهاجة دولتهم. ابن خلدون عَبْد الرحمن بن محمد بن محمد (ت.808هـ/1406م) : **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تح.خليل شحادة، ط.2، دار الفكر، بيروت، 1408هـ/1988م، ج.6، ص.27–31.

18- القلقشندي : المصدر السابق، ج.5، ص.180.

19- ابن خلدون : المصدر السابق، ج.6، ص.27.

20- النويري : المصدر السابق، ج.24، ص.223.

21- ابن الأثير أبو الحسن علي بن أبي الكرم مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عَبْد الكريم الشيباني (ت. 630 هـ/1232م) : **الكامل في التّاريخ**، ط.4، دَار الكِتَاب العَربيّ، بَيْرُوت، 1417هـ/1997م، ج.8، ص.201.

22- الحميري: المصدر السابق، ص.81.

23- النويري : المصدر السابق، ج.24، ص.224.

24- الإدريسي محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الطالبي (ت.560هـ/1165م) : **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، عالم الكتب، بيروت، 1409هـ/1989م، ج.1، ص.260.

25- مارمول كربخال : **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرون، مطابع المعارف الجديدة، الرباط 1408–1409هـ/1988–1989م، ج.2، ص.376.

26- البكري : المصدر السابق، ج.1، ص.757.

27- نفسه.

28- دومنيك فالرين : **بجاية ميناء مغاربي (1067–1510)**، تر. علاوة عمارة، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2014، ج.1، ص.60.

29- Hady Roger IDRIS, op. cit., T.1, p.258.

30- ابن عذراي : المصدر السابق، ج.1، ص.300.

31- ابن خلدون : المصدر السابق، ج.6، ص.211.

32- الحموي : المصدر السابق، ج.1، ص.339.

33- Laurent charles féraud, histoire des villes de la province de Constantine, Bougie, typographie et litiiographie l. arnolet. Constantine, 1869, p.73-74.

34- الحميري : المصدر السابق، ج.1، ص.147.

35- الإدريسي : المصدر السابق، ج.2، ص.262.

36- ابن الوردي سراج الدّين أبو حفص عمر بن المظفر (ت.861هـ/ 1457م) : **خريدة العجائب وفريدة الغرائب**، تح. أنور محمود زناتي، مكتبة الثّقافة الإسلامية، القاهرة، 1428هـ/ 2008م، ص.70؛ العمري : المصدر السابق، ج.4، ص.146.

37- بوقاعدة البشير : **التحصينات العسكرية الحمادية الثابتة بين جهود تحصيل الوقاية ومطامح التوسع والسيطرة**، في مجلة قضايا تاريخية، العدد 06، 1438هـ/2017م، ص.20.

38- عبد الكريم عزوق : **المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها (دراسة أثرية)**، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه دولة في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2007–2008، ص.151–152.

39- Hady Roger IDRIS, op. cit., T.1, p.258.

40- عبد الكريم عزوق : المرجع السابق، ص.14.

41- الحميري : لمصدر السابق، ج.1، ص.81.

42- ابن الأثير : المصدر السابق، ج.9، ص.68.

43- قُدرت المسافة بين القلعة وبجاية بأربعة أيام. أنظر: الحميري : المصدر السابق، ج.1، ص.469.

44- ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى المغربيّ (ت.673هـ/1274م) : كتاب الجُغرَافِيا، المكتب التّجاريّ للطّبَاعَة والنّشر والتّوزيع، بَيْرُوت، 1970م، ج.1، ص.36.

45- الحموي : المصدر السابق، ج.1، ص.339؛ الذهبي : المصدر السابق، ج.30، ص.289.

46- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج.6، ص.27.

47- الحميري : المصدر السابق، ج.1، ص.80–81؛ ابن خلدون : المصدر السابق، ج.6، ص.27.

48- الحموي : المصدر السابق، ج.1، ص.339.

49- ومن التحديات الداخلية التي عرفها الحماديون وتصدى لها الأمير الناصر بكل حزم هو تمرد أهل بسكرة وخروجهم عن طاعة أمراء بني حماد، لم يصبر الناصر على هذا التمرد وكلّف وزيره خلف بن أبي حيدرة بإخضاعهم وإنهاء تمردهم فنجح في ذلك، وأسر بعض وجهائها فسلهم الناصر في القلعة فقتلهم.

Hady Roger IDRIS, op. cit., T.1, p.258.

50- أفاد المؤرخ ابن حماد أنه في خلافة المستنصر العبيدي الذي وُلي الحكم صغيرا دبر أمر السلطة الجرجرائي فكانت له مؤهلات القيادة، وفي أيامه خلع المعز بن باديس الصنهاجي صاحب إفريقية لبني عبيد، ودعا لبني العباس، فقال الجرجرائي لا تكلف له ولا تجهز له جندا، ودبر إجازة العرب النيل إلى إفريقية، فلما وصلوا إليها ودخلوها كان ذلك سبب خرابها وذهاب ملك صنهاجة منها، ابن حماد : المصدر السابق، ص.103.

51- بالرغم من شهرة المرابطين وما حققوه من انتصارات في بلاد المغرب والأندلس، إلا أنهم عرفوا بدورهم هزائم شنيعة، ومن أعظم المصائب التي حلت ببلاد المغرب، وممن بث سمومهم وادعى بأن هؤلاء إذا احتاجوا إلى أعمدة الخيام فإنهم يُهدمون أسطح المنازل للحصول عليها.

Georges Marçais, LesArabes en Berbèredu XIe au XIVe siècle, thèse pour le doctorat ès lettres présentée à la Faculté des Lettres de l'Université de Paris, Paris, 1913, p.117.

52- ابن الأثير : المصدر السابق، ج.8، ص.200.

53- Hady Roger IDRIS, op. cit., T.1, p.259.

54- ابن الأثير: المصدر السابق، ج.8، ص.200.

55- Hady Roger IDRIS, op. cit., T.1, p.259.

56- ابن عذراي : المصدر السابق، ج.1، ص.300.

57- الذهبي : المصدر السابق، ج.30، ص.289.

58- عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج.6، ص.27.

59- قال: ولما كانت هذه الواقعة بين بنى حماد والعرب، وبلغ الناصر ما نال ابن عمه تميم من الألم والحزن، وكان وزيره أبو بكر بن أبى الفتوح محبا في دولة تميم، فقال للناصر: «يا مولاى، ألم أشر عليك ألا تقصد ابن عمك، وأن تتفقا على العرب. فلو اتفقتما لأخرجتما العرب» . فصدقه الناصر ورجع إلى قوله، وقال له: «أصلح ذات بيننا». النويري : المصدر السابق، ج.24، ص.223.

60- النويري : المصدر السابق، ج.24، ص.229.

61- أبو زرع الفاسي : المصدر السابق،

62- دومنيك فاليرين : المرجع السابق، ج.1، ص.60.

63- ابن الأثير : المصدر السابق، ج.8، ص.215؛ الذهبي : المصدر السابق، ج.30، ص.297.

64- ابن خاقان أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي (ت.529هـ/1135م) : **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، تح. وتع. حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الزرقاء، 1409هـ/1989م، ص.786.

65- الذهبي : المصدر السابق، ج.33، ص.05.

66- أطلق الباباوات على الأمراء الحماديين لقب ملوك السطيف وموريتانيا roi de la Mauritanie sitifienne(نسبة إلى مقاطعة موريطانيا السطايفية Maurétanie Sétifienne التي أُسست أثناء مرحلة الاحتلال الروماني) فقد ارتبط الحماديون بعلاقات وثيقة مع الأوروبيين. للمزيد حول هذا الموضوع، ارجع إلى:
Laurent charles féraud,op. cit., p.73.

67- دومنيك فاليرين : المرجع السابق، ج.1، ص.61.

68- الذهبي : المصدر السابق، ج.30، ص.289.

69- الادريسي : المصدر السابق، ج.1، ص.260.